وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ
مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ
صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

ويوم ينفخ في الصّور: ويوم ينفخ إسرافيل في الصّور(١) قال مجاهد: الصّور كهيئة البوق(٢) عن أبي هريرة أنّه قال لرسول الله ﷺ: يارسول الله ماالصّور؟ قال: قرن. قال: وكيف هو؟ قال: قرنٌ عظيمٌ ينفخ فيه ثلاث نفخات. الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصّعق، والثالثة نفخة القيام لله ربّ العالمين(٣) وإسرافيل هو الّذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أوّلاً نفخة الفزع ويطوّلها، وذلك في آخر عمر الدّنيا، حين تقوم السّاعة على شرار النّاس من الأحياء، فيفزع من في السّماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله، وهم الشّهداء، فإنهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون(٤)

داخرين: صاغرين(٥)

وترى الجبال تحسبها جامدة: وتبصر الجبال وقت النّفخة تظنّها واقفةً مكانها لعظمها(٦)

---

(١) نظر تفسير الطّبري ٢٠/ ١٣

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ١٣

(٣) انظر تفسير الطّبري ٢٠/ ١٣ وتفسير ابن كثير ٦/ ٢٢٥ و٣/ ٢٧٦ ـ ٢٨٢

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٢٥

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ١٤

(٦) انظر الجلالين

وكأنّها ثابتةٌ باقيةٌ على ما كانت عليه(١) وقائمة (٢)

صنع الله: الصُّنع إجادة الفعل، فكلّ صنعٍ فعلٌ وليس كلّ فعلٍ صنعاً(٣)

الذي أتقن كلّ شيء: الذي أحكم كلّ شيء(٤) وأحسن كلّ شيءٍ خلقه وأوثقه(٥)

يتبيّن من الأحاديث النّبويّة الشّريفة أن ثمّة ثلاث نفخاتٍ لإسرافيل عليه السّلام في الصّور تتعلّق بقيام السّاعة ويوم القيامة، وهذه النّفخات الثّلاث هي نفخة الفزع المؤذنة بقيام السّاعة، ومن متعلّقات هذه النّفخة سير الجبال ومرورها مرّ السّحاب، ونفخة الصَّعَق أي الموت، وهي التي يموت الخلائق بإذن الله تعالى بسببها إلاّ من شاء ربّك. ونفخة القيام لله ربّ العالمين لفصل الحساب ونيل الجزاء الثّواب أو العقاب، ومن الواضح أنّ حديث الآيتين الكريمتين متعلّقٌ بالنفخة الأولى نفخة الفزع التي تحدّث عنها مثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الحجّ(٦): ﴿ياأيّها النّاس اتقوا ربّكم إنّ زلزلة السّاعة شيءٌ عظيم. يوم ترونها تَذْهَلُ كلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعت وتضع كلّ ذات حَمْلٍ حَمْلَها وترى النّاس سُكارى وماهم بسُكارى ولكنّ عذاب الله شديد﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٢٢٦

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/١٤ و١٥

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «صنع»

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/١٥

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/١٥

(٦) الآية ١/٢

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّه يوم ينـفخ إسرائيل عليه السّلام النفـخة الأولى بإذن الله تعالى يفـزع من في السّموات ومن في الأرض من تلك الـنّفخة المخيـفة وتمتلىء قلوبهم بأشدّ الرّعب وأفظعه إلا من شـاء ربّك كالملائكة، وكلّ المخلوقات تأتي الى بارئها جلّ وعلا صاغرةً ذليلة.

والآية الكريمة الأخـرى تتـحدّث عن بعـض متـعلّقـات ذلك الوقت وتلك النّفخة. وترى الجبال يامحمّد ويأيها الإنسان تحسبها جامدة وتظنها ثابتةً وهي وقت النفخة تمرّ مرّ السّحاب وتسير بأمر الله تعالى سيراً حقيقياً. إنّ ذلك صنعُ الله تعالى الذّي أجاد فعل كلّ شيءٍ وأتقن عمله وصنعه.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

فكُبّت وجوهم في النّار: الكبّ إسقاط الشّيء على وجهه(١).

من جاء الله تعالي يوم القيامة بالحسنات وفي مقدمتها شهادة ألاّ إله إلاّ الله محمّد رسول الله وإفراد الله تعالى بالعباده فله عند الله تعالى ثوابٌ جزيل على كلّ حسنة إلى ما يزيد على سبعمائة ضعف وهم من فزغ يوم القيامة ومشهده المهيب آمنون مطمئنون ومن جاء بالسّيئات وفي مقدمتها الشّرك وهو الذّنب الذي لايغفره الله تعالى ، فإنّه يُلْقَى به على وجهه في النّار وبئس القرار، ويقال للذين أتوا السّيئات هل تجزون بإلقائكم على وجوهكم في النّار إلاّ عقاب ما كنتم تعملون في الدّنيا من سيّئات ، وتأتون من موبقات ومنكرات.

وقد جاء القول: ﴿فكبّت وجوههم في النّار﴾ في صيغة الزمن الماضي المبني للمفعول إيماءً إلى تحقق وقوع ذلك يوم القيامة وكأنّه قد وقع مِنْ قبلُ فعلا.

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ
ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى
لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾

هذه البلدة الّذي حرّمها : هي مكّة التي حرّمها على خلقه أن يسفكوا فيها دماً حراماً أو يظلموا فيها أحداً أو يصاد صيدها أو يختلى خلاها (٢).

قل يامحمد للناس أجمعين: إنّما أمرني الله تعالى أن أعبده وحده

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفاني : «كب»٢/ ٥٤٣ .

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ١٧ .

لاشريك له ، وهو ربُّ مكة المكرمة البلد الآمن المطمئنّ الذي حرّم الله تعالى على خلقه أن يسفكوا فيها دماً حراماً أو أن يظلموا أحداً ، وربُّ السّماوات والأرض وكلّ حيّ وشيء، وبيده ملكوت كل شيء ، وكما أمرني الله تعالى أن أكون من المسلمين المذعنين لمشيئته عزّ وجلّ، المفردين له بالعبادة وحده لاشريك له ، المنفذّين لأوامره ونواهيه.

وكذلك أمرني الله تعالى بأن أتلو القرآن الكريم وأرتّله ترتيلاً، وأتدبّر معانيه، وأهتدي بنوره، وأطبّق تعاليمه. فمن اهتدى منكم أيّها النّاس فأسلم لله تعالى ربّ العالمين، واتخذني أسوةً حسنةً فإنما يهتدي لنفسه، لأنّ ثواب أعماله راجعٌ إليه ، أمّا من ضلّ فإنّما يضلّ عليها، لأنّ عقاب أعماله مرتدٌّ إليه ، وإنّما أنا من المنذرين للكافرين والعاصين ، بالنّار والعذاب الأليم وعليَّ البلاغ وحده ، وعلى الله تعالى الحساب.

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ

لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

تُختَمَ السّورة الكريمة بهذه الآية الكريمة التي يأمر الحقّ جلّ وعلا فيها حبيبه صلى الله عليه وسلّم بأن يقول للمنحرفين عن سواء السّبيل على جهة الخصوص، في أسلوب الإنذار والتّهديد لهم: الحمد لله ربّ العالمين الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله تعالى . سيريكم الله تعالى آياته ياأيها المشركون ودلائل قدرته في الآفاق وفي أنفسكم وفي كلّ حيّ وشيء، فتعرفون تلك الآيات والدّلائل على حقيقتها بمشيئتنا ، وتتبيّنون أنّ القرآن الكريم حقٌ وصدقٌ في كلّ ما منح ومنع . إنّ منكم من يؤمن في الوقت المناسب ويعمل صالحاً فله ثوابه ، وإنّ منكم من يكفر ويسوّف ويؤمن وقت لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو عملت في إيمانها عملاً صالحاً فعليه وزره.

وما ربّك يامحمد بغافلٍ عمّا تعملون أيّها النّاس من خيرٍ تثابون عليه، أوشرٍ تعاقبون عليه.

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تأخذ بسبب من هذه الآية الكريمة من

سورة فصّلت (١) قال عزّ من قائل: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيَن لهم أنّه الحقّ. أوَ لم يكن بربّك أنّه على كلّ شيءٍ شهيد﴾

---

(١) الآية : ٥٣

ثانياً

سورة القصص

سُورَةُ القَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ
أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾
وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ
فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن
رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ
﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ
﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ
مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ
غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ
بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾
قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ
لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ
لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ
إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ
هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى
ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾
وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ
﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ
أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ
السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ اللَّغْوَ
أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِى الْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن
نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ
حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ
بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا
كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ
عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ
أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ
﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ
نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ
وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ
وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا
مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا
بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟
مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ
وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ
أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ
تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

بين
يدي التفسير

(١)

«نتلو عليك يامحمد من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لتثبيت فؤادك وأفئدة المؤمنين»

الآيات (١-٦)

تبدأ سورة القصص المكّية بالحروف المقطّعة : ﴿طسم﴾ التي ابتدأت بها من قبل سورة الشّعراء المكّيّة ، كما يجيء هنا كذلك الانتصار فوراً للقرآن الكريم على غرار كلّ السّور الكريمة الّتي تبدأ بهذه الحروف ، ويجيء فيها الانتصار للقرآن الكريم فوراً أو على التّراخي ، ويشار إلى رفيع آي الكتاب العزيز باسم الإشارة : ﴿تلك﴾ الدّالّ على البعد، ويوصف الكتاب بأنّه مبينٌ عن معانيه ومراميه، وبأنّه حقّ ، ويشار إلى وسيلتي حفظه في السّطور والصّدور، الكتابة والتّلاوة. وحينما يُنصّ على أنّ تلاوة آي الكتاب المبين على المصطفى ﷺ من أجل قومٍ يؤمنون يكون في ذلك إيماءٌ إلى الهدف من قصّ القرآن الكريم نبأ موسى عليه السّلام وفرعون، وهو تثبيت أفئدة المؤمنين الّذين كانوا يعانون آنذاك في مكّة المكرّمة من المشركين ، من جنس ما كان يعاني بنو إسرائيل من فرعون وقومه من عَنَتٍ وظلم. ومن البيّن أنّ محمد بن عبدالله ﷺ إمامُ المؤمنين، والمتّقين ، ففي هذا القصص تثبيتٌ لفؤاده عليه الصّلاة والسّلام. ويتأكّد تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ وأفئدة المؤمنين حينما ينصر الله تعالى موسى عليه السّلام وقومه من بني إسرائيل على فرعون الطّاغية وقومه من القبط. إنّ في هذا بشارةً بنصر الله تعالى حبيبه ﷺ والمؤمنين على الكافرين، وإيماءً إلى أنّ العاقبة للمتّقين.

يقرّر السّياق أنّ فرعون الطّاغية علا في أرض مصر وبغى، وجعل أهلها طوائف وفِرَقا، واستضعف طائفةً واحدة على جهة الخصوص ، هم بنو

إسرائيل، وها هوذا يذبّح الأطفال الذّكور خوفاً على ملكه من رجلٍ من بني إسرائيل حَسْبَ تعبير الكهنة والسّحرة رؤياه ، ويُبْقي الإناث أحياء كي ينتفع بهنّ حينما يصرن نساءً .لقد كان فرعون من المفسدين في الأرض حقّاً.

وإنّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يُسْبِغ مننه العظيمة على بني إسرائيل المستضعفين في أرض مصر، ويجعلهم ولاةً وحكّاما، ويجعلهم وارثي فرعون ، وقومه ، بعد إغراق الله تعالى لهم وإنجاء موسى عليه السّلام ومن معه من بني إسرائيل ، ويمكّن لبني إسرائيل في أرض الشّام ، ويري عزّ وجلّ فرعون الطّاغي ، ووزيره هامان الباغي، وجنودهما الجبّارين في الأرض ، ما كانوا يحذرونه من بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السّلام ، من تمكينٍ لهم في الأرض بعد هلاك فرعون وقومه.

إنّ ما كان أخيراً نصيباً لموسى عليه السّلام وقومه من نصرٍ مبين سيكون بإذن الله تعالى أخيراً نصيباً لمحمد بن عبدالله ﷺ وقومه المؤمنين.

(٢)

«موسى عليه السّلام قبل الرّسالة»

الآيات (٧-٢٨)

يتحوّل السّياق إلى الحديث عن موسى عليه السّلام قبل الرّسالة أوّلاً ويقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال قد أوحى إلى أمّ موسى عليه السّلام وحي إلهام حين ولدته أن أرضعيه فإذا خفت عليه أن يفتضح أمره وخَشيت أن يقتله رجال فرعون فألقيه بصُندوقه في نهرالنّيل الغزير الماء السّريع الجَريانَ. ونهاها الحقّ جلّ وعلا عن الخوف على الرّضيع من الغرق وعن الحزن لفراقه، كما بشّرها عزّ وجلّ بأنّه سوف يردّ إليها ولدها وفِلْذَة كبدها ، وبأنّه جلّ وعلا سوف يجعله من المرسلين.

وشاء الله تعالى أن يحمل الماء الصّندوق إلى حِمى قصور آل فرعون على

النّيل ، وأن يلتقطه آل فرعون ليكون بإذن الله تعالى عدواً لهم في دينهم ، وحَزناً لهم على ما ينالهم على يديه من مكروه. إنّ فرعون الطّاغي ، ووزيره هامان الباغي ، وجنودهما الأشرار كانوا يتعمّدون ارتكاب الأخطاء، دون خوف من الله تعالى ولاحياءٍ من عباد الله تعالى.

وشاء الله تعالى أن يقعَ الرّضيع في يد امرأة فرعون الّتي لها دالّةٌ على زوجها وسلطةٌ على آله ورجاله. إنّ عين المرأة حينما وقعت على الرّضيع ألقى الله تعالى حبّه في قلبها فبادرت المرأة إلى القول: هو قرّة عين لي ولك يافرعون ومصدر بهجة وسعادة لكلينا. لاتقتلوا الطفل أيّها الجنود واتركوه يحيا ويشبّ عسى أن ينفعنا ويصلنا خيره، أو نتّخذه ولداً ونتبنّاه، ونحن اللّذان ليس لدينا ذرّيّة .إنّها قالت الذي قالته، ونفّذ الرّجال ما اقترحته من استحياء الطّفل وهم لايشعرون ما يخفيه القدر لهم من هلاك على يديه.

وأصبح فؤاد أمّ موسى عليه السّلام فارغاً من كلّ شيءٍ إلاّ من همّ موسى عليه السّلام إلى حدّ أنهّا كادت لتبدي القول بسببه وتصرخ : يا ابناه ، وتعلن أنها والدة الطّفل الّذي ألقته بيدها بصُندوقه في نهر النّيل ، لولا أن ربط الله تعالى على قلبها وثبتها لتكون من الموقنين بالوعد الصّدق من الحقّ جلّ وعلا. وقالت أمّ موسى عليه السّلام لأخته الكبيرة الحصيفة تتبّعي أثره وتبيّني الّذي يجرى له ومعاملة القوم له ، ففعلت وأبصرته من بُعْدٍ بالقدر الّذي يجعلها تعلم بما يجري للطّفل دون أن يفطن أحدٌ لتصرّفها ، ومعرفة علاقتها به، وأنّه أحد أطفال بني إسرائيل.

وإلى أن تصل الأخت إلى المكان الّذي فيه موسى عليه السّلام وتقترح على القوم أهل البيت الّذين يضمّون الطّفل إليهم ويكفلونه لآل فرعون ، وهم له ناصحون، وعلى ما ينفعه حريصون، كان الحقّ جلّ وعلا قد حرّم على موسى عليه السّلام تحريماً قدَريا المراضع ، وصانه عن أن يَرضَع من غير ثدي أمّه ، لكرامته على الله تعالى. وحينما بلغت الأزمة ذروتها ، وخشي القوم أن يموت الطّفل لرفضه كلّ مرضع، شاء الله تعالى أن تتقدّم الأخت باقتراحها في لطف وحذر ، وشاء الله تعالى أن يقبل القوم الاقتراح ، طمعًا في نجاة الطّفل وتحقيق حرص آل فرعون على وجود المرضع الّتي يُقْبل عليها الطفل ويشرب

لبنها. وهكذا ردّ الحقّ جلّ وعلا موسى عليه السّلام إلى أمّه الرّءوم، كي تقرّ عينها، وينشرح صدرها، ويذهب حزنها بعودة طفلها إليها، ولتعلم أنّ وعد الله تعالى لها بردّ طفلها إليها حقٌّ، ولكنّ أكثر النّاس، وهم المشركون، لايعلمون أنّ وعد الله تعالى هو الحقّ، وأنّ قوله عزّ وجلّ هو الصّدق.

شاء الله تعالى أن تُرْضع أمّ موسى عليه السّلام طفلها وأن تأخذ أجْرَها من فرعون الحريص على قتل ذكور أطفال بني إسرائيل حِفاظاً على مُلْكه، وأن ينشأ موسى عليه السّلام ويترعرع في بيت فرعون، وأن يُصْنع موسى عليه السّلام على عين الله تعالى. ولمّا بلغ موسى عليه السّلام أشدّه واستوى فتناهى شبابه وتمّ خلقه آتاه الله تعالى الحكمة والعلم الوهْبيّ جزاء تقواه عليه السّلام، ومراقبته الله تعالى في السّرّ والعلن، وبلوغه مرتبة الإحسان، ذروة التّقوى، بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك. وكما جزى الله تعالى موسى عليه السّلام كِفاء إحسانه يجزي الله تعالى المحسنين في كلّ زمانٍ ومكان.

وشاء الله تعالى لموسى عليه السّلام الّذي استوى شبابه وتمّ خلقه أن يدخل مدينة فرعون: «مَنْف» وعاصمة ملكه على حين غفلة من أهلها وعند القائلة نصف النّهار فوجد فيها رجلين يقتتلان. هذا الرّجلُ الأوّل إسرائيليّ من أهل دين موسى عليه السّلام، وهذا الرّجل الآخر قبطيّ من قوم فرعون عدوّه عليه السّلام وعدوّ بني إسرائيل. فاستغاث الإسرائيليّ موسى عليه السّلام وطلب غَوْثه ونُصْرته على عدوّهما الفرعونيّ فلكز موسى عليه السّلام بجمع كفه الفرعونيّ لكزة واحدةً كان فيها حتفه.

وكما تدلّ تلك اللّكزة الواحدة من موسى عليه السّلام الّذي استوى وتشير إلى قوّته عليه السّلام، هي تشير إلى حنقه عليه السّلام على فرعون وآله ورجاله. وكما كانت استجابة موسى عليه السّلام سريعةً للمستغيث وقويّة، كانت توبة موسى عليه السّلام من الذّنب الّذي ارتكب سريعةً ونصوحا، وكانت أوبته إلى بارئه عزّ وجلّ فوريّةً وصادقة. قال موسى عليه السّلام هذا القتل من تسبّب الشّيطان الّذي هيّج غضبي فبطشت بالقبطيّ، إنّ الشّيطان عدوٌّ للإنسان مضلٌّ له وشديد العداوة له. قال موسى عليه السّلام ياربيّ إنّي

ظلمت نفسي بقتل نفسٍ حرّمتَ ، سبحانك، قتلها إلاّ بالحقّ، فاغفرلي ياربّي ذنبي ، فغفر له إنّه عزّ وجلّ هو الغفور لكلّ ذنب، الرّحيم بكلّ من تاب توبةً نصوحًا وأناب.

ذاع في المدينة أنّ قبطيّاً من آل فرعون قد قُتل ، ويُظّن أنّ أصابع الاتهام اتجهت إلى بني إسرائيل ، ويصحّ أن يكون الإسرائيليّ لم يكتم السّرّ فأذاعه في قومه أوّلاً ، ثمّ انتشر الخبر ، واتّجهت الأصابع إلى موسى عليه السّلام ، الّذي نفهم من دخوله مدينة فرعون وقت القائلة أنّه لم يكن على وفاق مع قصر فرعون الّذي نشأ فيه. فأصبح موسى عليه السّلام في مدينة فرعون خائفاً من قتله النّفس الّتي قتلها أن يؤخذ فيُقتَلَ بها، يترقّب الأخبار ، وينتظر الّذي يتحدّث به النّاس ويصنعون في أمر القتيل وقاتله. وحينما كان موسى عليه السّلام طائفاً في المدينة غارقاً في أفكاره إذا به يفاجأ بالإسرائيليّ الّذي طلب نُصْرته بالأمس يطلبُ نُصْرته اليوم كذلك .أدرك موسى عليه السّلام أنّ الإسرائيليّ ليس هو الرّجل الّذي يستطيع أن يتكيّف مع الأحوال ويتعامل مع المستجدّات فقال له موسى: إنّك لذو غَوايةٍ وبيّنُ الدّلالة على استعدادك لإثارة الخصام وإهاجة الشّرور.

على الرّغم من قول موسى عليه السّلام للإسرائيليّ ما قال فإنّ عاطفة موسى عليه السّلام الجيّاشة الّتي يثيرها دائماً تمثّل ما يفعله فرعون وآله من تقتيل ذكور أطفال بني إسرائيل وسوم بني إسرائيل الخسف قد جعلت موسى عليه السّلام يندفع مرّةً أخرى تجاه الرّجل الفرعونيّ القبطيّ يريد أن يبطش به كصاحبه بالأمس .في تلك اللّحظة أدرك الفرعونيّ الدّليل على الإشاعة الذّائعة بأنّ قاتل القبطي بالأمس موسى عليه السّلام. انفجر الفرعونيّ مخاطباً موسى عليه السّلام قائلاً: ياموسى أتريد أن تقتلني اليوم كما قتلت نفساً بالأمس .ما تريد يا موسى إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض بقتل النّاس بدون وجه حقّ، وما تريد أن تكون ممّن يعمل في الأرض على صلاحها.

أزعج الفرعونيّين نبأُ قتل الفرعونيّ وقت القيلولة فلا شهود آنذاك ، وكانت بقيّة اليوم وسحابة اللّيل وقتاً كافياً لبثّ العيون وتجسّس الأخبار ، خاصّةً في صفوف الإسرائيليّين الّذين تتّجه إليهم أصابع الاتّهام .وسبق أن

عرفنا أنّ الإسرائيليّ رجلٌ جامح العاطفة . ويُظَنّ أنّ هذا الفريق من النّاس غير قادر على ضبط النّفس وكتم السّرّ بالقدر الكافي . وكأنّ السّرّ قد ذاع في بني إسرائيل وشاع بين النّاس فالتقطته آذان رجال فرعون وأفصحت به ألسنتهم فكان ينبغي اتّخاذ الخطوة العمليّة بالقاء القبض على المتّهم بالقتل. وإذا كان رجال فرعون يّتخذون دون وجه حق كلّ الخطوات الّتي يريدون ، فالأحرى بهم أن يّتخذوا خطوة إلقاء القبض على المتّهم بالقتل ، تلك الخطوة الّتي لهم فيها وجه حقّ. وشاء الله تعالى أن يكون استصراخ الإسرائيليّ بموسى عليه السّلام في المرّة الآخرة صباحاً ، وكأنّ ما حدث وما قيل كان على رءوس الأشهاد. وسُرعان ما وصل الخبر إلى رجال فرعون الّذين كانوا مبثوثين في كلّ مكان وكانوا جميعاً آذاناً وعيوناً. وتمّ اتّخاذ القوم القرار بقتل موسى عليه السّلام ، وشاء الله تعالى أن يسبقهم إلى موسى عليه السّلام رجلٌ جاء إلى موسى عليه السّلام فعلاً ووصل إليه ، سابقاً القوم، مسرعاً في مشيه من طريق أقصر، محذّراً موسى من اتّخاذ القوم القرار بقتله، ناصحاً له بالخروج من المدينة فوراً.

خرج موسى عليه السّلام من المدينة خائفاً من قتله النّفس أن يقتل بها ، ينتظر الطّلب أن يدركه فيأخذه ، ففرّ إلى أرحم الرّاحمين الّذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء ، قال ياربّي نجّني برحمتك من القوم الظّالمين المشركين.

شاء الله تعالى الّذي يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء أن يتّجه موسى عليه السّلام إلى مدينة مَدين ، ومدين مدينةٌ بين المدينة المنورة والشّام على ساحل البحر الأحمر محاذيةٌ لمدينة تبوك على نحو من ستّ مراحل(١) ويُظنّ

---

(١) انظر هنا معجم البلدان : «مدين».

ـ والله تعالى أعلم- أنّ موسى عليه السّلام قطع المسافة بين منف ، عاصمة فرعون، قاهرة الأزهر الشّريف اليوم ، إلى مدين ، مدينة شعيب عليه السّلام على ساحل البحر الأحمر بجزيرة العرب ، قطع المسافة مشياً على الأقدام، ماراً بشبه جزيرة سيناء في الشّمال. وهذا الظّن يقوم على عودة موسى عليه السّلام بأهله من مدين إلى مصر ماراً بشبه جزيرة سيناء، وهناك : ﴿نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين﴾(١).

وانما قرّر موسى عليه السّلام العودة إلى مصر الّتي قتل فيها الرّجل الفرعونيّ مستفيداً من القانون المصريّ الوضعّي الّذي يقرّر سقوط تهمة القتل بالتّقادم وطول الأمد. إنّ العشر السّنوات الّتي قضاها عليه السّلام في مدين كفيلةٌ بإسقاط تهمة القتل عنه عليه السّلام . إنّ موسى عليه السّلام حينما يعود من مدين إلى مصر يعود من طريق سبق أن سلكها قبل عشر سنوات، ولمّا توجّه موسى عليه السّلام ناحية مدينة مدين سأل الله تعالي أن يهديه الطّريق المستقيم.

قصد موسى عليه السّلام ماء مدينة مدين، ربّما بقصد أن يشرب منه في المقام الأوّل، وهناك وجد على الماء جماعةً من النّاس يسقون أنعامهم ، ووجد بينه وبينهم عن قرب امرأتين تذودان ماشيتهما عن الماء. حَمَلت شهامة موسى عليه السّلام ومروءته المنبثقتان من الخلق العظيم الّذي فطره الله تعالى عليه على أن يسأل المرأتين عن شأنهما والسّبب الّذي من أجله تدفعان الغنم عن الماء .إنّه.عليه الصّلاة والسّلام يبادر إلى طرح هذا السّؤال رغم جوعه الشّديد وتعبه الأكيد .كان جواب المرأتين بأنّهما لاتسقيان غنمهما الماء حتّى يرجع الرّعاة عن الماء بعد سقي أنعامهم ، وبأنّ الباعث لهما على القيام بهذه المهمة أنّ أباهما شيخٌ كبيرٌ طاعنٌ في السّنّ. كان جواب المرأتين كافياً لأن ينسى عليه السّلام سَغَبه ونَصَبه وأن يبادر إلى سقي الغنم لهما في أقصر وقت فقد حباه الله تعالى مع الأمانة الفائقة قوةً خارقة ، والدّليل على تلك القوّة الخارقة أنّه عليه السّلام يملأ بالدّلو الحياض رغم جوعه وتعبه.

بعد أن سقى موسى عليه السّلام للمرأتين غنمهما اتّجه عليه السّلام إلى الظّلّ، ظلّ شجرة سَمُر فيما يقال ، وكان ذلك قبل الزّوال ، لأنّ الظّل بعد الزّوال يسمّى فيئاً ، واتّجه

(١) سورة القصص : ٣٠.

عليه السّلام فوراً إلى بارئه عزّوجلّ يدعوه فقال ياربيّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير، ومن طعامٍ محتاج.

استجاب ربّ العزّة والجلال الّذي هو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد دعاء عبده المضطرّ موسى عليه السّلام فجاءته عليه السّلام فوراً إحدى المرأتين تمشي على استحياءٍ وقد سترت وجهها بثوبها قالت إنّ أبي يدعوك ليقدّم لك ثواب سقيك الماشية لنا. لبّى موسى عليه السّلام دعوة الأب، وانطلق مع المرأة إلى منزل أبيها.

ونستطيع أن نفهم أنّه أكرمه غاية الإكرام، لأنّه ضيفٌ ولأنّه أسدى إليه معروفاً. وجرياً على عادة الكرماء نستطيع أن نفهم أنّ والد المرأتين اخّر السّؤال عن حال موسى عليه السّلام حتى لامكان للتّأخير. فلما قصّ موسى على والد المرأتين قصّته مع فرعون وآله قال لموسى عليه السّلام : لاتخف أبداً لقد نجوت من القوم الظّالمين لأنّ سلطة فرعون تقصر عن الامتداد إلى تلك المنطقة. وينبغي أن يكون شعور الفرح بهذا الجواب غامراً لنفس موسى عليه السّلام.

لقد وقع كلٌّ من الرّجلين من الآخر موقع الرّضا ، وشاء الله تعالى أن تطلب إحدى المرأتين من أبيها أن يتّخذ موسى عليه السّلام أجيراً يرعى ماشيتهم ومصلحتهم ، وأن تعيّن أهم سببين ، لكلّ قيادة ناجحة، وقوامة صالحة، إنّهما القوّة التي يعبّر عنها بالعلم، والأمانة الّتي يعبّر عنها بالحفظ. لقد تحقّقت قوّة موسى عليه السّلام في شدّة جذبه للدّلو من البئر حتى امتلأ الحوض ورويت الماشية، وتحقّقت أمانته عليه السّلام في غضّ طرفه عليه الصّلاة والسّلام حينما خاطب كلتا المرأتين وحينما خاطب إحداهما، ورافقها تلبيةً لدعوة أبيها. وشاء الله تعالى أن يخطو الأب أبعد الخطوات بأن يعبّر لموسى عليه السّلام بأنه يريد أن يزوّجه إحدى ابنتيه شريطة أن يعمل أجيراً عنده مهراً لزوجه ثماني

سنوات، فإن أتمّ موسى عليه السّلام الثّماني السّنوات فجعلها عشر سنوات، فإنّ ذلك فضلٌ من موسى عليه السّلام وكرمٌ من عنده. إنّ والد المرأة لايريد أن يشقّ على موسى عليه السّلام بأن يجعل الثماني سنوات عشر سنوات إلزاماً ، سيجد موسى عليه السّلام ذلك الشّيخ الكبير ، بإذن الله تعالى ، من الصّالحين. قال موسى عليه السّلام: ذلك الّذي قلت أنت ورضيت به أنا بيني وبينك ، أيّ الأجلين قضيت ، الثّمان أو العشر، فلاعدوان عليّ بطلب الزّيادة على العشر منّي .والله على ما نقول شهيدٌ وحفيظ.

(٣)

« موسى عليه السّلام بعد الرسالة»

(الآيات (٢٩ـ ٤٣)

فلمّا قضى موسى عليه السّلام الأجل المحدود مع الشّيخ الكبير، وأتمّ المدّة المحدّدة على خير وجهٍ بأن وفّى صهره أكمل الأجلين وهو عشر سنوات استأذن صهره أن يعود بأهله الى بلده مصر، مستفيداً، فيما يقال، من القانون المصريّ الوضعيّ الّذي تسقط معه تهمة القتل بالتّقادم. أذن الشّيخ الكبير لموسى عليه السّلام أن يرحل بأهله ومعهم الماشية الّتي وهبهم إيّاها ففعل. وحينما بلغوا شبه جزيرة سيناء ضلّ عليه الصّلاة والسّلام الطّريق في إحدى اللّيالي الشّاتية المظلمة، ولم يتمكّن من إشعال النّار كي يستدفئوا بها وينتفعوا. إنّ موسى عليه السّلام اتّجه من مدينة مدين على ساحل البحر الأحمر بمحاذاة تبوك شمالاً كي يصل الى شبه جزيرة سيناء. وحينما ضلّ الطريق في اللّيلة الشّاتية المظلمة كانت وجهته نحو الجنوب الى مصر. وحينما أبصر عليه السّلام من جانب الطّور ناراً كانت وجهته عليه السّلام باتّجاه القبلة الى الجنوب الغربّي بحيث يكون جبل الطّور في النّاحية الغربيّة عن يمينه عليه الصّلاة والسّلام. لقد أبصر عليه السّلام ناراً عن بعدٍ الى جهة القبلة ووجدها تضطرم في شجرةٍ خضراء في أصل

الجبل مما يلي الوادي. قال موسى عليه السّلام لأهلـه امكثوا هنا إنّي أبصرت ناراً سآذهب إليها وآلتقي بأصحابها لعلي آتيكم منها بخبرٍ نهتدي به الى الطّريق الّذي أضللنا، أو بشعلةٍ من النّار نستـدفيء بها وننتفع. قطع مـوسى عليه السّلام مـسافةً بعيـدة كي يصل الى مكان النّار بدليل مجيء جملة: ﴿أتاها﴾ والمعروف أنّ جملة: «أتى» لاتستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد المكانيّ، أو الزّمانيّ، أو المعنويّ. بعكس جملة: «جاء» الّتي لاتستعمل في القرآن الكريم إلا دليلا على القرب المكانيّ، أو الزّماني، أو المعنوي. فلمّـا أتى موسى عليه السّلام النّار ناداه الحقّ جلّ وعلا من شاطىء الوادي الواقع على يمين موسى عليه السّـلام في البقعة المباركة عند الشّجرة بأن يامـوسى إنّي أنا الله ربّ العالمين، وبأن ألق عصاك الّتي في يمـينك ففعل. لمّا رأى موسى عليه السّلام عصاه تهتز وتضطرب كأنّها تلك الأفعى الضّخمة المخيفة انصرف هارباً ولم يلتفت وراءه ولم يرجع. نادى الحقّ جلّ وعـلا موسى عليه السّلام وأمـره بالرّجوع ونهاه عن الخوف من الحيّة المنقلبة عن العصا وبشّره بأنّه من الآمنين. وقد سكت السّياق عن الشّقّ الآخر من معجزة العـصا بأن يأخذ موسى عليه السّلام الأفـعى فتعود عصاً مـرّة أخرى. وآية العصا أولى آيات موسى عليه السّلام التّسع المذكورة على جهة التفصـيل في سورة الأعراف وحدها في الآيات الكريمات ١٠٧ و١٠٨، ١٣٠ و١٣٣ وقـد تحـدّثت سـورة طه وحـدها عن شـقّي معجزة العصا في الآيتين الكريمتين ٢٠ و٢١ وقد تحدّث السّـياق بعد ذلك عن آية اليد بشقّيها. وآية سورة القصص وحدها هي التي تحدّثت عن آية اليد بشقّـيها. إنّ السّياق يأمر موسى عليه السلام بأن يدخل يده اليمنى ـ مَـثَلاً ـ في فتحة القـميص الّتي يُدْخِلُ فيها رأسـه حينما يلبس القميص ويُخرج منها رأسـه حينما ينزع القميص حتّى تصل كفّه علـيه السّلام الى إبطه فيضم إليه جناحه ويضغط على كفّه بجانبه ويُخرج يده فتخرج بيضاء في مثل شعاع الشمس من غير مَرَضٍ ولابرص. هـذا هو الشّقّ الأوّل من معـجزة اليد، وهذا هـو معنى القول، والله تـعالى أعلم: ﴿أَسْلُكْ يدك في جـيبك تخـرج بيضـاء من غيـر سوء﴾ أمّا الـشّقّ الآخر من المعـجزة فـيشـمله القـول: ﴿واضمم إليك جـناحك من الرّهب﴾والمعنى، والله تعـالى أعلم، وأدخل ياموسى يدك البيضاء هذه المرّة في فتحة القميص الّتي تُدخل فيها رأسك حينما ترتدي القميص حتّى تـصل كفّك الى إبطك، واضـمم إليك جناحك من الخوف الّذي انـتابك لبـياض يدك، واضغط بجانبك على كفّك بباعث الرّهبة الّتي مـلأت قلبك بين جنبيك لضياء كفّك، وأخرج يدك تخرج أدماء كما كانت أوّل مرّة.

ومن البيّن أنّنا بصدد مظهرٍ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال البلاغة بالحذف،

وأنّ المذكور من الألفاظ والمعاني دلّ على المحذوف بحيث يدرك القارىء والمستمع المعنى كاملاً بأقلّ من نصف الألفاظ. ويكاد يكون القول في الآية الكريمة هنا: ﴿اُسْلُك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ واضمم إليك جناحك من الرّهب﴾ يكاد يكون القول هنا يمثّل مظهراً من أكبر مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال البلاغة بالحذف. إنّ المعنى يُدْرك كاملاً بأقلّ مِنْ نصف الألفاظ. إنّ تحول العصا حيّة فعصا، وخروج اليد بيضاء فأدماء برهانان من ربّ موسى عليه السّلام بأنّه رسول ربّ العالمين الى فرعون وملئه القوم الفاسقين.

قال موسى عليه السّلام ياربّي إنّي قتلت من آل فرعون نفساً فأخاف أن يقتلوني به إن دعوتهم الى توحيدك. وإنّ أخي هارون هو أفصح منّي لساناً فأرسله معي معيناً يصدّقني إنّي أخاف أن يكذّبوني. قال الحقّ جلّ وعلا: سنقوّيك بشقيقك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بسوء. بآياتنا البيّنات أنتما ومن اتّبعكما الغالبون فرعون وملأه. فلمّا جاء موسى عليه السّلام فرعون وملأه بآيات الله تعالى البيّنات قالوا ماهذا الّذي جاء به موسى إلاّ سحرٌ مختلق وماسمعنا بهذا التوحيد الذي تدعونا إليه في آبائنا الأوّلين. وقال موسى ربّي عزّ وجلّ أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له العاقبة المحمودة من الدّار الآخرة، والمقصود موسى وهارون عليهما السّلام وأتباعهما. إنّه لايفلح المشركون. والمقصود فرعون وملؤه.

ثمّ كان من فرعون ووزيره وجنودهما سلسلة الأكاذيب والادّعاءات والافتراءات الّتي استحقّوا بسببها خزي الدّنيا والآخرة. قال فرعون الطاغية ياأيّها الملأ ماعلمت لكم من إله غيري، وأنتم لاينبغي لكم ولايحقّ أن تعلموا غير علمي، فأوقد لي ياوزيري هامان على الطّين فاجعل لي من الآجرّ بناءً عالياً لعلّي أطّلع الى إله موسى الّذي يدعو إليه وإنّي لأظنّه من الكاذبين. واستكبر فرعون وجنوده في أرض مصر بغياً وعتوّاً وظنّوا أنّهم لايرجعون الى الله تعالى بعد الموت وأنّه لاحساب ولاجزاء. لقد أخذ الله تعالى فرعون وجنوده أخذ عزيزٍ مقتدر فأغرقهم في الماء المِلْح أجمعين. فانظر يامحمّد بعين قلبك كيف كان عاقبة الظّالمين من أمثال قومك المكذّبين. وجعلنا فرعون وآله أئمّةً يقتدي بهم الضّالون الّذين يدعونهم الى أعمال أهل النّار. لقد ألزم الله تعالى فرعون وآله طرداً من رحمته جلّ وعلا في الدّنيا والآخرة، ويوم القيامة هم من الّذين قبّحهم الله تعالى مظهراً ومخبراً فتنبو عنهم العيون وتنفر منهم النّفوس. ولقد آتى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام الكتاب السّماويّ من بعد ما أهلك الأمم السّابقة المكذّبة وأعطاه التّوراة نوراً لقلوب بني إسرائيل، وهدى لهم من الضّلالة، ورحمةً لمن آمن منهم واتّقى، لعلّهم يتأثّرون بمواعظها، ويتذكّرون نعم الله تعالى عليهم فيشكرون ولايكفرون.

(٤)
«القرآن الكريم كلام الله تعالى»
الآيات (٤٤ ـ ٥١)

إنّ كلّ تلك الأخبار الصّادقة والأنباء الدقيقة إنّما وصلت الى المصطفى ﷺ عن طريق الوحي من الله تعالى الى هذا الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم. وهاهو ذا السّياق يقرّر كلّ ذلك. إنّ الحقّ جلّ وعلا يقول للمصطفى ﷺ: وماكنت يامحمّد بجانب الجبل الغربيّ حينما قضينا الى موسى عليه السّلام الأمر، وكلّمناه، وألزمناه بالرّسالة، وكلّفناه بالذّهاب الى فرعون وملئه. وماكنت يامحمّد من المعاصرين لتلك الأحداث الحاضرين تلك المشاهد. لقد أنشأنا بعد موسى عليه السّلام العديد من الأمم الّتي تطاول عليها العمر، وبعد عهدها بالوحي، وقست قلوبها، وتأكّد هجرها للصّراط المستقيم، وبذلك صحّت الحاجة لوحيٍ جديد. وماكنت يامحمّد مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم ماأوحينا إليك من آياتٍ بيّنات، ولكنّا كنّا مرسلينك رحمةً للعالمين، ومكرمينك بالوحي المبين. وماكنت يامحمّد بجانب جبل الطّور إذ نادينا موسى الكليم، ولكنّا أرسلناك رحمةً من ربّك ربّ للعالمين، ولتنذر قومك الّذين ماأتاهم من نذيرٍ من قبلك يامحمّد لعلّهم يتّعظون ويتذكّرون حقّ الله تعالى عليهم بتوحيده عزّ وجلّ.

ولولا أن تصيب مشركي مكّة نقمةٌ من الله تعالى بسبب مااكتسبوا من آثام، فيقولوا ياربّنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك البيّنات ونكون من المؤمنين بك لعجّلنا لهم العقوبة. إنّ الله تعلى لايواخذ النّاس بسابق علمه ولكن بأعمالهم، ولهذا أرسل للمشركين محمّداً ﷺ. فلمّا جاء مشركي قريشٍ محمّدٌ ﷺ، وهو الحقّ من عند الله تعالى، قالوا هلاّ أوتي محمّدٌ مثلما أوتي موسى من آيات محسوسات. لقد أوحى كافرو يهود لكافري قريش بهذا الزّخرف من القول والغرور منه. ويسأل السّياق في إنكار: أو لم يكفر بنو إسرائيل الآباء بما آتى الله تعالى موسى عليه السّلام مِنْ قَبْلُ مِنْ معجزاتٍ حسّيّة! أو لم يقل كافرو يهود: إنّ التّوراة والقرآن الكريم سحران تعاونا وصدّق كلٌّ منهما الآخر وإنّا بكلّ من الكتابين كافرون! بَلَىَ، ويأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يأمر كافري قريش بأن يطلبوا من كافري يهود بأن يأتوا بكتابٍ من عند الله تعالى هو أهدى من التّوراة ومن القرآن الكريم إن كانوا صادقين في

أقوالهم. فإن لم يستجيبوا لك أيّها الرّسول الكريم وهم لن يستجيبوا فاعلم يامحمّد أنّ القوم إنّما يتّبعون أهواءهم ونفوسهم الأمّارة بالسوء. ولاأحد أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله تعالى. إنّ الله تعالى لايهدي القوم الظّالمين ولايرشدهم إلى الصّراط المستقيم.

إنّ ربّ العزّة والجلال قد وصّل القول لكفّار مكّة وفصّله لهم لعلّهم يتذكّرون حقّ الله تعالى عليهم ويتّعظون ولايصغون لكافري يهود ولا لسواهم بل يصغون للحقّ ويتّبعونه.

(٥)

«من أهل الكتاب مؤمنون يستحقّون الثّواب، ومن قوم المصطفى ﷺ كافرون يستحقون العقاب»

الآيات (٥٢ ـ ٦١)

وفي مقابل كافري أهل الكتاب الّذين يرون المشركين أهدى من المؤمنين سبيلاً هنالك مؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنّصارى. إنّ مِنْ أهل الكتاب الّذين آتاهم الله تعالى التّوراة والإنجيل مِنْ قَبْلِ القرآن الكريم هم بالقرآن الكريم يؤمنون، لأنّ كتب الله تعالى يصدّق بعضها بعضاً. وإذا يُتلَى عليهم القرآن الكريم قالوا آمنا به، إنّ هذا الكتاب العزيز موحى به من ربّنا الّذي أوحى التوراة والإنجيل، إنّا كنّا من قبل نزول القرآن الكريم مسلمين لله تعالى ربّ العالمين، موحّدين، مصدّقين بالرسول الكريم الّذي أرسله الله تعالى رحمةً للعالمين، لأنّا نجد نعت الرّسول الكريم الذي أوحي الله تعالى اليه القرآن العظيم ونتبيّن صفته في كلّ من التّوراة والانجيل. إنّ أولئك المتّبعين لمحمّد ﷺ من أهل الكتاب والّذين أصبحوا جزءاً لايتجزّأ من خير أمّة أخرجت للناس، سوف يؤتيهم الله تعالى أجرهم مرّتين اثنتين بسبب صبرهم على التكاليف حينما كانوا أتباعاً لموسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام، وحينما أصبحوا أتباعاً لمحمّد بن عبدالله ﷺ. وهؤلاء يدفعون بالحسنة السيّئة، فلا يبادلون السيّئة بمثلها، ويتبعون الحسنة السّيئة كي تمّحي السّيئة، وممّا رزقهم الله تعالى ينفقون بإيتاء الزّكاة والصّدقة. وإذا

سمع معتنقو دين الإسلام من أهل الكتاب باطل القول من السّفهاء أعرضوا عنه ولم يستمعوا له وقالوا للجهلاء لنا أعمالنا وسنجازى عليها، ولكم أعمالكم وستجازَوْن عليها، لانقول لكم إلاّ سلاماً وأمناً وطمأنينة تسلم بها أعراضنا، لانبتغي الجاهلين ولانريد الرّدّ عليهم ولاملاحاتهم ولا السّير في طريقهم.

وإذا كان من أهل الكتاب مؤمنون فإنّ من قوم المصطفى ﷺ وأهله كافرين. وإذا كان هدى الدّلالة والإرشاد يملكه عباد الله تعالى الصّالحون، وفي مقدّمتهم النّبيّون والمرسلون، فإنّ هدى التّوفيق حقٌّ خالصٌ للذّات العليّة وحدها دون سواها.

إن محمّداً ﷺ لايستطيع أن يهدي من أحبّ هدايته ولو كان عمّه أبا طالب شقيق والده عبدالله، ولكنّ الله تعالى يهدي من يشاء هدايته، وهو جلّ وعلا أعلم بالمستحقّين الهداية الحريصين عليها.

ويتعلّل كفّار مكّة بعذرٍ قبيح كفعلهم. إنّهم يزعمون أنهم لو اتّبعوا الهدى مع محمدٍ ﷺ فإنّ المشركين يتخطّفونهم ويرمونهم عن قوسٍ واحدة ويخرجونهم من أرضهم. إنّ كفّار مكّة يسيئون استغلال ماأنعم الله تعالى عليهم من إطعامٍ من جوع وأمنٍ من خوف، وكأنّ لهم يداً في هاتين النعمتين. وإنّ القوم يُسألون في إنكار: أو لم يمكّن الحقّ جلّ وعلا لهم حرماً آمنا يُجْلَب إليه ثمرات كلّ أرضٍ رزقاً من عند الله تعالى وحده لاشريك له. إنّ كفّار مكّة ينسون هذه الحقيقة أو يتناسونها لذا هم يقولون ماقالوا وكأنّهم لايعلمون أنّ الإطعام من الجوع والأمن من الخوف محضُ فضلٍ من الله تعالى.

ويحذّر السّياق كفّار مكة من أن يكون مصيرهم مصير المكذّبين السّابقين الّذين جحدوا نعم الله تعالى عليهم. ما أكثر القرى الّتي بطر أهلها معيشتهم وكفروا بأنعم الله تعالى فأهلكها الله تعالى، فتلك مساكن القوم لم تُسْكَنْ من بعدهم إلاّ قليلاً، وكان الله تعالى الّذي ورث السماوات والأرض هو وارثهم إذ لاعقب لهم. وماكان ربّك يامحمّد مهلك القرى حتّى يبعث في مكة المكرّمة أمّها رسولاً هو محمدٌ ﷺ يتلو عليهم آيات الله تعالى. وماكان الله تعالى مهلك القرى إلاّ وأهلها ظالمون مشركون. وإنّ ماآتى الله تعالى عباده من نعمٍ في الحياة الأولى ليس إلاّ متاع الحياة الدّنيا المحدود القصير العمر وزينتها الفانية. وإنّ ماعند الله تعالى خيرٌ وأبقى. وإنّ على النّاس أن يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً بإيثار الآجلة، وتتأكّد خيريّة ماعند الله حينما يقرن الإنسان بين وعد الله تعالى الطّائعين بدخول الجنّة فينبغي عمل الصّالحات في العاجلة، وبين وعيد الله تعالى العاصين المؤثرين لمتاع الدّنيا الرّخيص الزّائل

بكونهم يوم القيامة من المحضرين في العذاب الأليم. ثمّ يتحوّل السّياق الى الحديث عن ملابسات يوم القيامة.

(٦)

«عذاب المصرّين على الإعراض عن آيات الله تعالى وهلاكهم يوم القيامة وفوز المؤمنين» الآيات (٦٢ ـ ٧٥)

في يوم القيامة ينادي الحقّ جلّ وعلا المشركين ويقول لهم على سبيل التّوبيخ: أين شركائي الّذين زعمتم في الدّنيا أنّهم لي شركاء فعبدتموهم! قال الّذين حقّ عليهم القول بدخول النّار ووجب في حقّهم العذاب ياربّنا: هؤلاء الذين أغويناهم أغويناهم كما غوينا واتّبعونا بمحض إرادتهم، ولم يتّبعوا الدّعاة الى الهدى، تبرّأنا اليك اليوم من اتّباعهم لنا في الحياة الدّنيا وعبادتهم إيّانا ، لا، بل يلقون التّبعة على أتباعهم ويتخلّصون من المسؤولية. وكذلك يقال للمشركين على سبيل التّوبيخ: ادعوا معبوديكم الّذين أشركتموهم مع الله تعالى في العبادة كي ينقذوكم ممّا أنتم فيه من عذاب، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم، ورأوا العذاب واستيقنوا الهلاك، ووقتها تمنّوا لو أنّهم كانوا في الحياة الدّنيا من المهتدين كي ينالوا الثّواب. وفي يوم القيامة ينادي الحقّ جلّ وعلا المشركين أيضاً فيقول: ماذا أجبتم رسلي الّذين بعثتهم إليكم كي يخرجوكم من ظلمات الشّرك الى نور الإيمان. ولمّا لم يكن لدى المشركين حجّة تنقذهم، ولاجوابٌ سديدٌ يأخذ بأيديهم، فإنّ الأخبار المنجية لهم من العذاب قد غابت عنهم، لذا فإنّهم لاينبسون ببنت شفة، ولا يُحيرون جواباً.

ويفتح السّياق باب الأمل للمشركين كي يتوبوا من الشّرك، ويؤمنوا بالله تعالى وحده لاشريك له، ويعملوا صالحاً، كي يكونوا بإذن الله تعالى يوم القيامة من الفائزين. ويتأكّد هذا المعنى حينما يقرّر السّياق القدرة المطلقة للذّات العليّة والعجز المطبق للآلهة المزعومة. إنّ ربّك يامحمّد ويأيّها الإنسان يخلق مايشاء، ويختار مايريد. وليس للآلهة المزعومة شيءٌ من الاختيار بَلْهَ الخلق فالعجز آكد. تنزّه الله وتعالى علواً كبيراً عمّا جعله المشركون لله تعالى من

شركاء وأنداد. وكما أنّ لله تعالى وحده لاشريك له الخلق والأمر، له وحده دون سواه كذلك العلم المطلق. إنّه جلّ وعلا يعلم ماتخفي صدور المشركين من شرك وماتعلنه ألسنتهم وجوارحهم من قولٍ وفعل. وهو الله تعالى الّذي لاإله إلا هو والمحمود على كلّ حالٍ في الدّنيا والآخرة، وله الحكم والقضاء، وإليه النّشور والمصير.

واستمراراً من السّياق في فتح باب الأمل للمشركين وفي حثهم على استعمال عقولهم استعمالاً صحيحاً هو يسألهم سؤالاً يصل الدّنيا بالآخرة كي يعملوا في هذه الحياة الدنيا ليوم القيامة الّذي يحذّرهم من تجاهله. إنّ السّياق يأمر المصطفى أن يقول لهم: أخبروني إن جعل الله تعالى عليكم الّليل موصولاً لانهار بعده الى يوم القيامة مَنْ معبودٌ زائفٌ غيرُ الله تعالى المعبود بحقّ يأتيكم بضياء. أفلا تسمعون وتعون ماتسمعون. قل يامحمّد أخبروني إنْ جعل الله تعالى عليكم النّهار موصولاً لا ليل بعده إلى يوم القيامة مَنْ معبودٌ زائفٌ غير الله تعالى المعبود بحقٍ يأتيكم بليلٍ ترتاحون فيه. أفلا تبصرون بأعينكم وببصائركم الّتي ينبغي أن تكون نيّرة. إنّ الله تعالى وحده لاشريك له هو الذي يفعل كلّ ذلك أمّا الآلهة الزّائفة فلا لأنّ عجزها مطلق. وإنّ من رحمة الله تعالى أنّ جعل عزّ وجلّ لنا الليل لنسكن فيه، والنّهار لنبتغي فيه من فضل الله تعالى، ولعلنا نشكر لله تعالى نعمه وآلاءه.

ويعود السّياق الى ندائه التّوبيخيّ للمشركين المصرّين على كفرهم وعنادهم. إنّ الحقّ جلّ وعلا يناديهم يوم القيامة ويسألهم عن الشّركاء الّذين أشركوهم مع الله تعالى في العبادة. وإذا كان السؤال السابق يتكرّر هنا فإنّ الجواب يُسْكت عنه اكتفاءً بالجواب السّابق. ويتحوّل السّياق الى الحديث عن الرّسول بعد الحديث عن التوحيد على غرار ماسبق. إنّ الحقّ جلّ وعلا يُخْرِجُ من كلّ أمّة شهيدها من نبيّ أو رسول كي يشهد عليها. وهنالك يقال للمشركين هاتوا حجّتكم على أنّ لله تعالى شركاء، وأحضِروا برهانكم على إشراككم بالله تعلى ماكنتم تشركون. فعلم المشركون آنذاك أنّ الحجة البالغة والحقّ لله تعالى، وغاب عنهم ماكانوا يعبدونهم في الحياة الدّنيا ويشركونهم مع الله تعالى في العبادة.

وكما كان من قوم المصطفى ﷺ بل من أهله مشركون مثل عمّه أبى طالب، كان من قوم موسى عليه السّلام بل من أهله خارجون عن الصّراط المستقيم مثل قارون ابن عمّ موسي عليه السّلام.

(٧)

«خَسَفَ الله تعالى بقارون الباغي وبداره الأرض»

الآيات (٧٦ ـ ٨٢)

إنّ قارون كان من قوم موسى عليه السّلام فبغى على قومه بني إسرائيل. وآتى الله تعالى قارون من الكنوز الشّيء الكثير، حتّى إنّ مفاتيح خزائنه لتَتْعَبُ بحملها الجماعة من الرّجال الأشدّاء. وحينما بغي قارون على قومه بباعث الفرح لماله وجاهه نصحه عقلاء قومه من المؤمنين، ونَهَوْه عن الفرح والأشر والبطر، إنّ الله تعالى لايحب مَنْ تلك صفاتهم بل يمقتهم. وأمروه بأن يبتغي فيما آتاه الله تعالى من مالٍ وجاه ثواب الله تعالى في الآخرة بأن يسخّر كلّ ذلك في طاعة الله تعالى، ونصحوه بأن يأخذ نصيبه من الدّنيا من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح وماإلى ذلك، وأن يحسن الى عباد لله تعالى كما أحسن الله تعالى إليه، ونهوه عن الفساد في الأرض بإتيان المعاصي. إن الله تعالى لايحبّ المفسدين في الأرض بل يمقتهم.

أَخَذَتْ قارون العزّة بالإثم فجحد فضل الله تعالى عليه، وزعم أنّ الّذي أوتِيَهُ من مالٍ وجاهٍ ثمرة مالديه من علم ومعرفة، وماعنده من ألمعيّة وعبقريّة. أجهل قارون ولم يعلم هذا الباغي أنّ الله سبحانه وتعالى قد أهلك مِنْ قبله من الأمم من هو أشدّ منه قوةً وأكثر مالاً! ولكنّ المجرمين لايُسْألون عن ذنوبهم الكثيرة الّتي تفوق الإحصاء والعدّ. فخرج قارون على قومه في زينته وأبّهته. قال الّذين يريدون الحياة الدّنيا ياليت لنا مثل الّذي أوتي قارون من مالٍ وجاه فإنّه ذو حظّ عظيم ونصيبٍ موفور من المال والجاه. وقال المؤمنون الّذين آتاهم الله تعالى العلم الوهبيّ لِتَقْواهم: قُبْحاً لكم لتعطيلكُمْ عقولَكُمْ وضعفِكُمْ أمام زهرة الحياة الدّنيا الذّابلة ونعيمها الزّائل. إنّ ثواب الله تعالى خيرٌ من النّعيم الزّائل لمن آمن بالله تعالى وعمل صالحاً، ولايُلَقّى هذه الخصلة الحسنة، ولايُلهم هذه الكلمة الطيّبة، ولا ينال النّعيم المقيم في الجنّة، إلا الصّابرون على البلاء والطّاعات وعن المعاصي.

فخسف الله تعالى بقارون وبداره الأرض، فما كان له من جماعةٍ ينصرونه من دون الله تعالى باستنقاذه من الهلاك، وماكان من المنتصرين بذواتهم. وأصبح الّذين تمنّوا مكانه بالأمس القريب يقولون: ماأشدّ عجبنا ودهشتنا لما وقع لقارون. إنّ الله تعالى يوسّع الرّزق لمن يشاء من عباده ويضيّقه على من يشاء، لحكمةٍ بالغةٍ، ليس للإكرام أو الإهانة ولكن للاختبار بالنّعمة والنّقمة.

لولا أن منّ الله تعالى فحفظنا لخسف بنا. ماأشدّ عجبنا ودهشتنا لمصير قارون الباغي الفَرِح، إنّه لايُفلِح الكافرون.

(٨)

«ثواب المحسنين وعقاب المسيئين وتثبيت فؤاد المصطفى ﷺ»

(٨٣ ـ ٨٨)

تلك الجنّة الّتي فيها مالاعينٌ رأت ولاأذنٌ سمعت ولاخطر على قلب بشر يجعلها الله تعالى لعباده المؤمنين الّذين لايريدون تكبّراً على عباد الله تعالى ولا فساداً بارتكاب المعاصي، والعاقبة الحسنة للمتّقين. من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها، عشر أمثالها الى سبعمائة ضعفٍ فأكثر، وهذا هو الفضل. ومن جاء بالسّيّئة فلا يُجْزَى إلاّ مثلها ولايُجْزَى الّذين عملوا السّيّئات إلاّ جزاء ماكانوا يعملون. وهذا هو العدل. وإنّ ربّك يامحمّد الّذي أنزل عليك القرآن الكريم وأذن لك بالهجرة لرادّك الى مكّة المكرّمة مظفّراً. قل يامحمّد للمشركين الّذين يطلبون منك آياتٍ محسوسةً كآيات موسى عليه السّلام وينفّذون اقتراحات كافري يهود: ربّي جلّ وعلا أعلم من جاء بالهدى من عنده ومن هو في ضلالٍ مبينٍ منّا ومنكم. وماكنت يامحمّد قبل نزول القرآن الكريم عليك تظنّ أن يوحَى اليك هذا الكتاب العزيز، لكن أوحيناه إليك رحمةً من ربّك بك وبالعالمين. فلاتكوننّ يامحمّد معيناً للكافرين على كفرهم ولكن خالفهم ونابذهم وفارقهم. ولايصرفنّك يامحمّد أولئك المشركون عن تبليغ آيات الله تعالى بعد أن أُنزِلت اليك، وادع الى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، ولاتترك تبليغ المشركين رسالة ربّك فتكون ممّن

فَعَلَ فِعْلَ المشركين بمعصيته ربّه عزه وجلّ. ولاتعبد يامحمّد ويأيّها الإنسان مع الله تعالى إلهاً آخر. لاإله معبودَ بحقٍّ إلا هو وحده لاشريك له. كلُّ شيء هالك إلاّ إيّاه ، له القضاء النّافذ وإليه نرجع جميعاً يوم القيامة للحساب والجزاء.

وهكذا يكون في آخر السّورة الكريمة كما كان في أوّلها حديثٌ عن القرآن الكريم معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة، وتثبيتٌ لفؤاده ﷺ حينما يتّجه الخطاب إليه ﷺ على جهة الخصوص في الموضعين. وبذلك يُشَدُّ آخر السّورة الكريمة الى أوّلها. وهذا من مظاهر التّرابط بين أجزاء السّورة الكريمة ووحدتها الموضوعية.

تعقيب

يصحّ أن يقال إنّ المحور الّذي تدور حوله سورة القصص المكّيّة الكريمة تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ وأفئدة المؤمنين المستضعفين في مكّة المكرّمة آنذاك مِنْ قِبلَ المشركين، وذلك على غرار استضعاف فرعون الطّاغية بني إسرائيل قوم موسى عليه السّلام. وبالإضافة الى أوجه الشّبه بين المؤمنين في مكة المكرّمة وبني إسرائيل في مصر الّذين يسامون الخسف في الموضعين، ثمّة أكثر من وجه شَبهٍ بين الرّسولين الكريمين. إنّ كلاً من موسى ومحمّدٍ عليهما الصّلاة والسّلام أحد أولي العزم من الرّسل الخمسة الكرام، وأوحى الله تعالى إليه كتاباً سماوياً، التّوراة في حق موسى عليه السّلام، والقرآن في حقّ محمدّ بن عبدالله ﷺ. وأولو العزم من الرّسل هم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. ويتأكّد محور سورة القصص بتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام وأفئدة المؤمنين حينما نتأمّل الآية الكريمة العشرين بعد المائة من سورة هود. قال تعالى: ﴿وكلاً نَقُصّ عليك من أنباء الرّسل مانثبّت به فؤادك وجاءك في هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾.

وقضايا سورة القصص يأخذ بعضها بِحُجَز بعض . إنّها تبدأ بالحديث عن القرآن الكريم وتنتهي بالحديث عنه. وفي ذلك تثبيتٌ لفؤاد المصطفى ﷺ. ثمّ تتحدّث عن فرعون الطّاغي الّذي سام بني إسرائيل الخسف ونصر الله تعالى لهم بقيادة موسى عليه السّلام على فرعون وهامان وجنودهما الطّغاة البغاة. وفي تقرير السّياق نصر الله تعالى المستضعفين على فرعون وملئه تثبيتٌ لأفئدة المؤمنين وبشارةٌ لهم بالنّصر بقيادة المصطفى ﷺ. ثمّ كان حديث السّورة الكريمة المستفيض عن موسى عليه السّلام قبل الرّسالة وبعدها. ومن معالم حياة موسى عليه السّلام خروجه من مصر إلى مدين ثمّ عودته إلى مصر.

ولهذه المعالم وجه شبه في حياة المصطفى ﷺ الّذي خرج من مكّة المكرّمة مهاجراً إلى

المدينة المنورة ثمّ عاد إلى مكّة المكرّمة منتصراً. وإلى عودة المصطفى ﷺ الى مكّة المكرّمة أشارت الآية الكريمة الخامسة والثّمانون. قال تعالى: ﴿إنّ الّذي فرض عليك القرآن لرادّك الى معاد. قل ربّي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلالٍ مبين﴾.

وبعد حديث السّورة الكريمة عن غرق فرعون وجنوده الطّاغين تتحدّث عن إيتاء الله تعالى موسى عليه السّلام التوراة بعد إهلاك الله تعالى الكثير من الأمم الكافرة، وإيتاء الله تعالى محمّداً ﷺ القرآن الكريم بعد إهلاك الله تعالى الكثير من الأمم الكافرة أيضاً. وفي الحديث عن القرآن الكريم تذكيرٌ للمصطفى ﷺ بفضل الله تعالى العظيم عليه بإيحاء القرآن الكريم المشتمل على الكثير من دقائق حياة موسى عليه السّلام، ومنها ثواؤه عليه السّلام في مدين، والإيحاء إليه بجانب الطّور وتكليم الله تعالى إيّاه.

ثمّ كان حديث السّورة الكريمة عن قومي الرّسولين الكريمين ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون. إنّ الأخوّة الحقيقيّة هي أخوّة الإيمان وليس رابطة النّسب. والدّليل على أنّ الأخوّة الإيمانية هي الأخوّة الحقيقية ثناء السّورة الكريمة على أهل الكتاب من أتباع موسى وعيسى عليهما السّلام الذين آمنوا بمحمّد ﷺ وأصبحوا جزءاً من خير أمّة للناس، فلهم أجران اثنان. أجر اتّباع موسي أو عيسى عليهما السّلام أوّلاً، وأجر اتّباع محمّد بن عبدالله ﷺ آخرا. والدّليل على أنّ رابطة النّسب لاقيمة لها المصير السّيّء لكلٍ من قارون الّذي كان من قوم موسى عليه السّلام بني إسرائيل، وأبي طالب عمّ المصطفى ﷺ.

وكما كان الإيمان رَحماً بين المؤمنين، فمؤمنو أهل الكتاب يؤمنون بمحمّد ﷺ، كان الكفر رباطاً بين الكافرين. إنّ كافري بني إسرائيل يكفر آباؤهم بما آتي الله تعالى موسى عليه السّلام من آياتٍ حسّيّة، ويكفر أحفادهم بما آتى الله تعالى محمّداً ﷺ من قرآن مجيد، ويقترحون على كفّار قريش أن يطلبوا منه ﷺ آياتٍ حسّيّة، على غرار آيات موسى عليه السّلام الحسّيّة الّتي كفر بها آباؤهم من قبل!

لقد كان من قوم موسي عليه السّلام كافرون ومؤمنون. وكان من قوم المصطفى ﷺ كافرون ومؤمنون. وكان الحديث عن أبي طالبٍ عمّ المصطفى ﷺ منطلقاً للحديث عن كافري قريشٍ خصوصاً، الكافرين عموماً، وتبيين عقاب الكافرين يوم القيامة من ناحية، وتبيين ثواب المؤمنين من ناحية أخرى، لقد كان الحديث عن ملابسات يوم القيامة مستفيضاً، كما كان لفتٌ لانتباه الكافرين إلى آيات الله تعالى، وفي مقدّمتها اختلاف اللّيل والنّهار.

ومن أنواع الكفر كفر النّعمة وقد خسف الله تعالى بقارون وبداره الأرض بسبب بغيه

وطغيانه ولم ينفعه كونه من قوم موسى عليه السّلام تماماً كما لم ينفع أبا طالب قربه من المصطفى ﷺ وكونه شقيق أبيه بسبب كفره.

ويكون في نهاية السّورة كما كان في بدايتها حديثٌ عن القرآن الكريم وخطابٌ للمصطفى ﷺ على جهة الخصوص.

وهكذا تأخذ قضايا السّورة بِحُجَرٍ. بعض. والله تعالى أعلم.

التّفسير

(١)

«نتلو عليك يامحمّد من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لتثبيت فؤادك وأفئدة المؤمنين»

الآيات (١ ـ ٦)

طسم ﴿١﴾

تبدأ سورة القصص المكّية بالحروف المقطّعة: ﴿طسم﴾ الّتي بدأت بها سورة الشّعراء المكّيّة من قبل، وماقيل عن الحروف المقطّعة أوّل سورة البقرة يقال عن الحروف المقطّعة في كلّ السّور الّتي تبدأ بهذه الحروف المقطّعة، وعددها جميعاً تسعٌ وعشرون سورة. ومن العلماء من ذهب الى القول: الله أعلم بمراده بذلك. ومن العلماء من ذهب الى أنّ الحروف المقطّعة امتدادٌ للتّحدّي بالقرآن الكريم، إنّ كلماته مؤلفةٌ من الحروف التي تتألّف منها كلمات العرب في شعرهم ونثرهم وسائر ضروب أقوالهم، ولكنّ القرآن الكريم نسيجُ وَحْدِه، جلال معنًى وجمال مبنى.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾

هذه الآيات آيات الكتاب العزيز المبين عن معانيه الجليلة، ومراميه النّبيلة، وهو تنزيل ربّ العالمين، على قلب المصطفى ﷺ، بواسطة جبريل عليه السّلام، بلسان عربيّ مبين.

ولمّا كان اسم الإشارة: ﴿تلك﴾ يدلّ على البعد، فإنّه يومىء هنا إلى رفيع منزلة آي القرآن الكريم، والكتاب العزيز.

والآية الكريمة تؤكّد النّظريّة القائلة بأنّ كلّ السّور الكريمة التي تبدأ بالحروف المقطّعة يجيء فيها الانتصار للقرآن الكريم. إنّ الانتصار هنا للقرآن الكريم يجيء فوراً.

نَتْلُوا عَلَيْكَ

مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

نتلو عليك: نقرأ عليك ونقصّ في هذا القرآن (١)

نقصّ عليك يامحمّد بالحقّ في هذه السّورة الكريمة، من نبأ موسى عليه السّلام وفرعون طاغية مصر، ونقرأ عليك يامحمّد بالصّدق، من خبرهما المهمّ، مِنْ أجل قومٍ يؤمنون بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، وبالقرآن الكريم إماماً. وإنّما كان المؤمنون الهدف من قصّ السّورة الكريمة نبأ موسى عليه السّلام مع فرعون طاغية زمانه وكلّ زمان، لأنّ المؤمنين عموماً هم المستفيدون حقّاً من ذلك القصص، ولأنّ الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم خصوصاً، هم المستفيدون منه، بسبب أوجه الشّبه الكبيرة بين ملابسات الدّعوتين الموسويّة والمحمّديّة في فجرهما. إنّ كلاً من الرّسولين الكريمين من أولي العزم من الرّسل الخمسة وهم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد عليهم صلوات ربّ العالمين وسلامه أجمعين، وإنّ كلاً من الرّسولين الكريمين وأتباعهما المؤمنين قد نالهم من الكافرين أذى مبين.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠، ١٨

إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾

إنّ فرعون علا في الأرض: تجبّر في أرض مصر وتكبّر وقهر أهلها حتى أقرّوا له بالعبودة(١).

وجعل أهلها شيعاً: وجعل أهلها فرقاً متفرّقين(٢) والمفرد شيعة(٣)

إنّ فرعون، طاغية عصره وكلّ عصرٍ ومِصْر، علا في أرض مصر، وتكبّر على أهلها وتجبّر وطغى وبغى، وجعل أهل مصر فِرَقاً وفئات، فهؤلاء موالون وأولئك معادون، هؤلاء مقرّبون وأولئك مبعدون، هؤلاء لهم كلّ شيء وأولئك ليس لهم شيءٌ، هؤلاء مُنْعَمٌ عليهم وأولئك مغضوبٌ عليهم، وهكذا. على أنّ الفئة المغضوب عليها بأكثر من غيرها بنو إسرائيل. والسّبب وراء ذلك الغضب ماأخبر السّحرة والكهنة به فرعون بأنّ زوال ملكه يكون على يد رجل من بني إسرائيل(٤) إنّ فرعون الطّاغية استضعف بني إسرائيل واستعبدهم فهو يذبّح كلّ أبناء بني إسرائيل الذّكور كيلا يخرج فيهم ذلك الرّجل الّذي خافه فرعون، ويُبْقي البنات أحياء كي يخدمن حينما يصرن نساءً ويسخّرهنّ. إنّ فرعون كان من المفسدين في الأرض حقاً.

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٢٠/١٨

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/١٨

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «شيع» ١/٣٥٦

(٤) انظر ـ مثلاً ـ تفسير الطّبري ٢٠/١٩

وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا في الأرض. ونريد عَطْفٌ على قوله: ﴿يستضعف طائفةً منهم﴾(١) والمعنى: ونحن نريد أن نمنّ على الّذين استضعفهم فرعون في الأرض من بني إسرائيل ونجعلهم أئمّة(٢) والمنّة النّعمة الثّقيلة(٣)

ونجعلهم أئمّة: أي ولاة الأمر(٤)

ونجعلهم الوارثين: ونجعلهم ورّاث آل فرعون يرثون الأرض من بعد مهلكهم(٥).

ونمكّن لهم في الأرض: ونوطّىء لهم في أرض الشّأم ومصر(٦)

ماكانوا يحذرون: ماكانوا يحذرونه منهم من هلاكهم وخراب منازلهم ودورهم(٧).

استضعف فرعون الطّاغية بني إسرائيل فقتل الأطفال الذّكور وأبقى الإناث أحياء. وأراد الحقّ جلّ وعلا أن يُسبِغَ على بني إسرائيل المستضعفين في أرض مصر نعمه العظيمة ومننه

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/١٩

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/١٩

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «منن» ٢/٦١٣

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/١٩

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/١٩

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/١٩

(٧) تفسير الطّبري ٢٠/١٩

الجسيمة، وأن يجعلهم ولاةً وحكّاماً، ويجعلهم وارثي فرعون وقومه الّذين أهلكهم عزّ وجلّ بالغرق، ويمكّن لهم في أرض الشّام الّتي هاجروا إليها، ويري عزّ وجلّ فرعون الطّاغي، ووزيره هامان الباغي، وجنودهما الجبّارين في الأرض، من بني إسرائيل الّذين مكّن الله تعالى لهم في الأرض، ماكانوا يحذرونه منهم، من زوال الملك، والهلاك، وخراب الدّيار.

وإنّ القول هنا: ﴿ونجعلَهُمُ الوارثين. ونمكّن لهم في الأرض﴾ ومعناه كما عرفنا: ونجعل بني إسرائيل وارثي فرعون وقومه ونمكّن لهم في أرض الشّام، يذكّرنا بمثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الشعراء[1]، ﴿فأخرجناهم من جنّات وعيون. وكنوزٍ ومقامٍ كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ ويصحّ أن نفهم من مثل هذه الأقوال الكريمة أنّ بعض بني إسرائيل قد بقي في مصر وأنّه ورث فرعون وقومه وأنّ أكثر بني إسرائيل قد رافق موسى عليه السّلام حينما أوحى الحقّ جلّ وعلا إليه عليه السّلام بأن يسري ببني إسرائيل ليلاً، فِراراً من فرعون الطّاغية، وجنوده الباغين. والله أعلم.

---

(١) الآيات ٥٧ ـ ٥٩

(٢)
«موسى عليه السّلام قبل الرّسالة»
الآيات (٧ ـ ٢٨)